هوامش

في «بايكة العمور» أي المخازن الكبيرة المكونة من قناطر تعلو أبوابها، تختلف الاستخدامات، لكنّ القصة الفلسطينية الشاهدة على كذب الرواية الإسرائيليّة، تبقى بلا تغيير

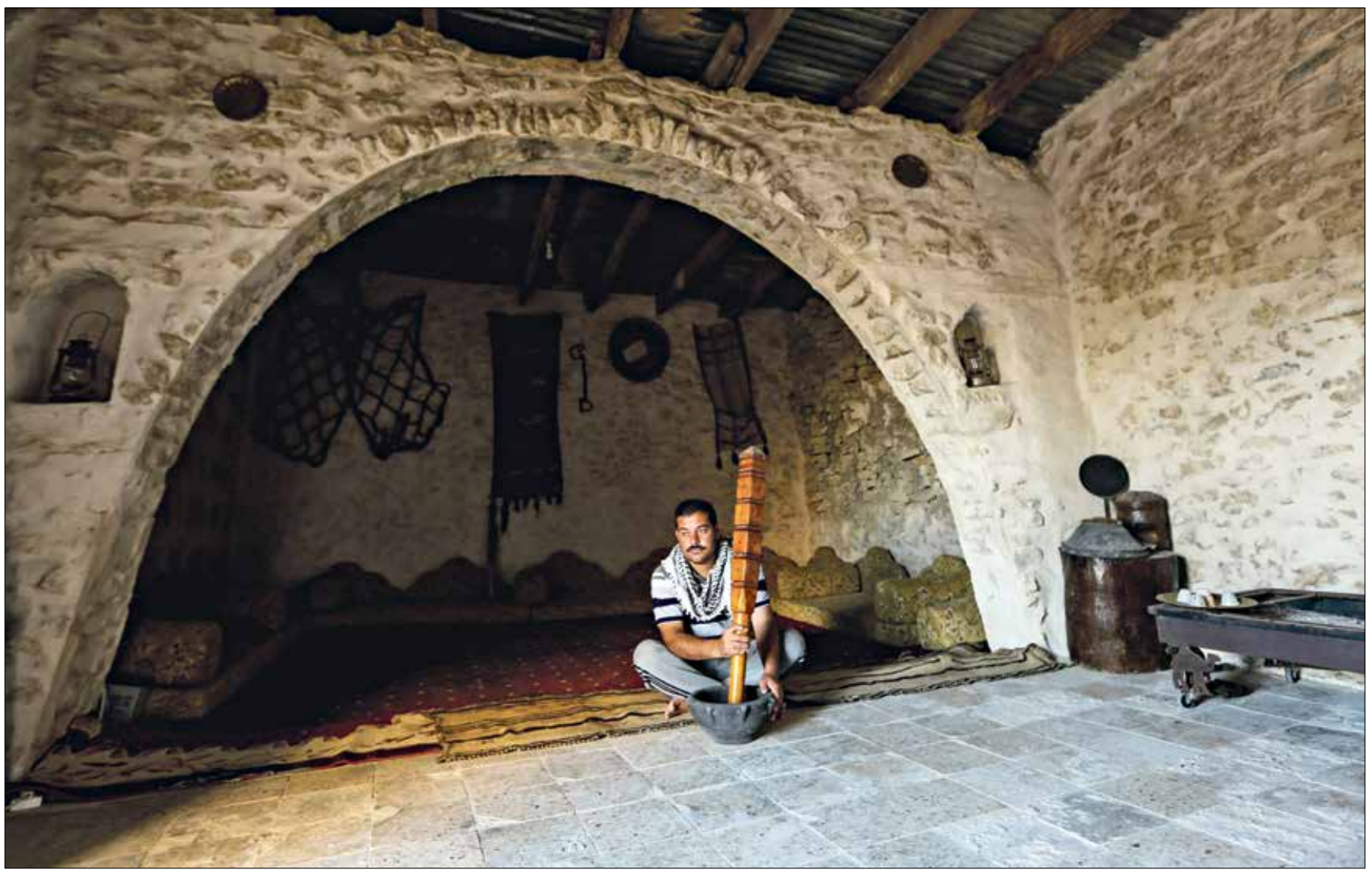

قاسم العمور في البايكة (عبد الحكيم ابو رياش)

«بايكة العمور»
حلقة وصل بين الأجيال الفلسطينية

غزة ـ **علاء الحلو**

تُجسِد «بايكة العمور» شرقي محافظة خان يونس، جنوبي قطاع غزة الفلسطيني المحاصر، حكايات عشرات السنوات التي مر بها الشعب الفلسطيني، وقد نُقشت على حجارتها القديمة، قصص أجيال تعاقبت، وتراث لا يزال حاضرًا في أروقتها. وينبعث من حجارة البايكة، عبق القِدم، وملامح الحياة القديمة لسُكانها، ومن مر بها، وقد عكست بجدرانها ذات اللون الرملي والبُني الداكن، وما تحتضنه من مقتنيات عتيقة، ملامح حضارة بدوية وقروية، لا يزال ورثتها يحافظون عليها، رغم تعاقب العقود. وتعتبر «البايكة»، وهو الاسم الذي يطلق في الشام على المخازن الكبيرة، المكونة من قناطر تعلو أبوابها العديدة، ومجموعة من الأعمدة المتتابعة على طول خط مستقيم، موصولة بأقواس لحمل السقف المشترك، فيما تحمل في الكثير من الأحيان دلالات دينية أو تاريخية، وتشتهر مدينة القدس بـ «البوايك» القديمة، إلى جانب عدد من المدن الفلسطينية. وتتكون بايكة العمور القديمة، من مبنى كبير، يضم بهوا، والعديد من الغرف، وأحواش البهائم، إلى جانب مخزن للغلة الزراعية، فيما بات يستخدم للجلسات العائلية، ويحاول القائمون عليه، حمايته من تغول عوامل الزمن عليه. يقول قاسم العمور، القروي الذي ولد في بلدة الفخاري جنوب قطاع غزة، ويعمل مدرسًا، كما أنّه متخصص في علم المكتبات، إن عوامل التعرية أثرت على البايكة القديمة، ما دفعه إلى ترميمها بمساعدة أقاربه على مدار عام، حرصًا منهم على عدم تآكل البايكة شيئًا فشيئًا، بهدف الحفاظ على قيمتها التاريخية.

ويعتبِر أهالي المنطقة بايكة العمور جزء أساسيًا من تراثهم وهويتهم الفلسطينية، وفق تعبير العمور لـ «العربي الجديد»، إلى جانب كونها الشاهد الحي على كذب الرواية الإسرائيلية، التي تحاول على مدار الوقت تغييب الحقيقة التي تؤكد أحقية الفلسطينيين في أرضهم.

ويحاول صاحب البايكة قاسم العمور، رعايتها على مدار الوقت، فيما يخصص الوقت الكافي للجلوس بها، واسترجاع حكايات الماضي، مع سرد القصص التي مرت بها، دون التوقف عن سرد بطولة الأجداد لأولاده، وتفاصيل عملهم في البايكة، ومحتوياتها القديمة، والأنشطة التي كانت تدور في داخلها، فيما يؤكد على ضرورة مواصلة رعايتها، كواحدة من الأعيان التراثية الهامة.

ويختلف استخدام البايكة مع اختلاف مُلّاكها، حيث يقوم أصحابها من أهل البادية باستخدامها لأغراض زراعية، لتخزين البذور ومحاصيل الحصاد، إلى جانب كونها حاضنة لمستلزمات الإبل والأحصنة والحيوانات المختلفة، فيما تقتصر البايكة عند القرويين على السكن فقط. قام الجد عميرة علي العمور بتشييد البايكة بعد الهجرة القسرية التي تعرض لها هو وسُكان منطقة بئر السبع، على أيدي العصابات الصهيونية، وقد استخدمها منذ ذلك الحين في العديد من الاستخدامات، كان أبرزها تخزين الغلال من المحاصيل الزراعية والأعلاف، فيما بنى أحواش الأغنام والإبل والأحصِنة والدواب بشكل عام. وبنيت بايكة العمور على الطراز الفلسطيني الخاص بالبيوت القروية، والتي تُمكّن أهالي البادية من استخدامها لأداء أعمالهم، فيما كان يستخدمها القرويون للسكن، وقد استخدم بشكل أساسي «حجر الحثان» المتواجد في المناطق الشرقية لقطاع غزة، في بناء البايكة، إلى جانب الطين. وتحتضن جدران البايكة من الداخل، سيف الجد الذي زينت صورته المدخل، كذلك سيف قاسم العمور الذي صنع قبل تسعة عقود، وإلى جانبه بارودة، والعديد من القطع النحاسية القديمة، وبكارج القهوة والأدوات الفخارية، كذلك خُرج الجمال والأحصِنة، وشباك الجمل، والأدوات والأقمشة البدوية المطرزة والتي كانت تستخدم في بئر السبع، فيما تم تخصيص مساحة خاصة بالكتب مختلفة المواضيع السياسية والتاريخية، التي صُففت داخل فتحات في الجدران على هيئة رفوف، يطلق عليها أصحاب المكان «الطُلاقات». وُبنيت البايكة على مساحة 300 متر مربع، فيما وصل سُمك جدرانها إلى نحو 60 سنتيمترا، وأُقفلت بأبواب خشبية، ونوافذ معدنية، إلا أن عوامل الزمن، والتعرية، أثرت في ما يزيد على ثلثي مساحتها، ما دفع الأحفاد إلى الحفاظ على إرث جدهم، الذي توفي عام 1957. ولم يتوقف تأثر البايكة على عوامل التعرية الطبيعية فقط، وإنما تعرضت للقصف الإسرائيلي المباشر خلال الحرب الإسرائيلية الثالثة على قطاع غزة عام 2014، ما أدى إلى تصدع أجزاء كبيرة منها، إلى أن قام الورثة بإعادة ترميمها عام 2019.

باختصار

«البايكة» هو الاسم الذي يطلق على المخازن الكبيرة المكونة من قناطر تعلو أبوابها، ومجموعة من الأعمدة المتتابعة على طول خط، موصولة بأقواس

■■■

الجد عميرة العمور بنى البايكة بعد الهجرة القسرية التي تعرض لها هو وسُكان منطقة بئر السبع على أيدي العصابات الصهيونية، وقد استخدمها في تخزين الغلال وغيرها

■■■

بايكة العمور شاهد حي على كذب الرواية الإسرائيلية التي تحاول على مدار الوقت تغييب الحقيقة التي تؤكد أحقية الفلسطينيين في أرضهم

وأخيراً

منطف الطرب ومنطف العلم والذوق

خطيب بدلة

اعتدنا أن نصغي إلى أغنياتٍ جميلةِ اللحن، سريعةِ الإيقاع، ونندمج معها، ونردّد كلماتها باستمتاع، ولكننا قلّما نتفكر بمعانيها. خذ مثلاً أغنية «يا صَبَّابين الشاي زيدوا حَلَاتُه» التي أخذها الفنان توفيق النمري (1918- 2011) من الفولكلور الأردني، وغنّتها بعده سميرة توفيق، واشتُهرت بها، ثم أخذتها مطربة اسمها إلين خلف، من دون الإشارة إلى مصدرها، وحوّلتها إلى فيديو كليب لاقى رواجاً كبيراً، وأصبح عددٌ هائل من المتابعين الشباب يتداولونها باعتبارها أغنية إلين خلف. المقطع الرئيسي في الأغنية يقرنُ زيادة السكر في الشاي بالسرور و«الكيف»، بل ويعتبر حياةَ مَنْ لا يحب هذا النوع من السرور لا قيمة لها: «اللي ما يحب الكيف لشو حياتُه؟»

الأغنية، على كل حال، ظريفة، لا يُمَلُّ سماعها، على الرغم من أن الشاي المحلّى بـ «سكّر زيادة» لا يجعل المرء «يكيّف»، بل قد تصدّه الرشفةُ الأولى من الكأس نفسَه، فلا يعود قادراً على ارتشاف البقية... ينصح الأطباء، عادة، بشرب كميةٍ قليلةٍ من الشاي يومياً، فهو نافع للجسم، أما الإفراط في تناوله فيرفع الضغط، ويزيد الحالة العصبية، وإذا شُرب قبل مضيّ ساعتين على تناول الطعام، يَمنع الأمعاء من امتصاص عنصر الحديد. ويحذّرون، كذلك، من تناول السكّر المذاب، لأنه يتحوّل في الجسم إلى شحومٍ ثلاثية، تساهم على نحو فعال في تشكيل الكتلِ الشحمية، وأبرزها «الكرش». ويؤثر على الأعصاب، ويساعد على تشكل الخثرات الدموية. وإذا كان لدى المسرف في تعاطي السكّريات إصابة غير مشخصة بالداء السكري، فقد تحدُث له اختلاطاتٌ لا تُحمد عقباها.

يجدر بنا أن نأخذ بالاعتبار أن وجود السكّر في البلاد العربية جديد نسبياً، يعود إلى منتصف القرن العشرين. وقد كان، في أيام ظهور أغنية «صبّابين الشاي»، يُقَدَّمُ للضيوف المعتبرين، والحبايب. وهذا يعني أن مؤلف الأغنية كان يهدف من زيادة حلاوة الشاي إظهار الكرم والجود... وفي كل الأحوال، ستبدو الأغنية المذكورة بسيطة و«جنحة» إذا قارناها بأغنياتٍ أخرى تجعل العدوان على الآخرين أمراً محبّباً، وتعتبره نوعاً من البطولة، كما في واحدةٍ من أغاني القدود الحلبية، يغنّيها صباح فخري، تقول «بالسيف لآخُذ بنتهم، وأرحل على ديرة هَلي»... أقلّ ما يقال في أخذ امرأة بالسيف، أو بأي نوع من الأسلحة الحديثة، إنه عمل همجي، بلطجي، بالإضافة إلى أن الصورة التي تنطبع في أذهاننا، ونحن نسمع هذا المقطع، توحي بغياب القانون عن المجتمع، فالرجل المغنّي يأخذ ابنة الناس بالسيف، ويمضي إلى ديرة أهله، ماشياً الهوينى، من دون أن يكون لفعلته أي عقابيل.

ثمّة فكرتان تغريان المرء بإبرازهما في مثل هذا الموضع. الأولى أن الغناء لا يقلّ أهمية عن الشعر، بل إنه أقدر من الشعر على التسرّب إلى لا شعور المتلقي، ثم سُكْناه... ومعلوم أن كبار شعراء العربية كانوا يتسابقون للفوز برضى أم كلثوم، عساها تغنّي بعض أشعارهم فتشهرها، مثلما كان من أمر أحمد شوقي، وأحمد رامي، وإبراهيم ناجي، وعبد الله الفيصل، ومرسي جميل عزيز، وجورج جرداق... وفي هذا السياق، نتذكر قول أنسي الحاج إن أكبر مكافأة يمكن أن ينالها شاعر أنْ تغنّي له فيروز. الفكرة الثانية مسؤولية المطرب الذي يحتل مساحة واسعة من الشهرة والأهمية والروعة عن مراجعة الكلمات التي سيغنّيها، لتصبح جزءاً من شخصيته. ومعلومٌ أن أم كلثوم كانت تناقش كل كلمة وكل بيت في القصيدة التي ستغنّيها مع المؤلف والملحن. وعبد الحليم حافظ اجتمع مطولاً مع الشاعر الكبير نزار قباني والموسيقار محمد الموجي لتعديل بعض الكلمات في «قارئة الفنجان» (1976). وعاصي الرحباني غيّر جملة «اضربها صَرْمة تعيش مرتاح» من أغنية سيد درويش، بينما يغنّي مطربنا الكبير صباح فخري: «إن جيتي وجبتي حدا معاكي، أهدّ الدار وأجعلها خرابا».

> عبد الحليم اجتمع مطولاً مع نزار قباني والموسيقار محمد الموجي لتعديل بعض الكلمات في «قارئة الفنجان»

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**